المنهج النقدي عند الرافعي ومعركة الأصالة والحداثة

Al-Rafiai'i's criticism method and the Battle of Authenticity and Modernity

خديجة اليتيم: طالبة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب

Elyatim khadija: Doctoral student, University mohammed V, Rabat, Morocco

Email: elyatimkhadija@gmail.com

الملخص:

هدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على المنهج النقدي عند "الرافعي" وأهم الأدباء الذين خاض ضدهم المعارك النقدية، ووقفنا تحديدا عند عباس محمود "العقاد" و"طه حسين". وإن الغرض من معالجتي لهذا الموضوع هو البحث في الجانب النقدي عند "الرافعي"، وكذا التطرق إلى أهم القضايا النقدية التي اختلف حولها الناقد مع دعاة التجديد والانفتاح على مبادئ الغرب، ولأجل ذلك قسمت هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث: عالجت في المبحث الأول مفهوم النقد عند "الرافعي"، ومنهجه المتبع في النقد، والمبحث الثاني وقفت فيه عند أهم القضايا النقدية التي عالجها الناقد، أما المبحث الثالث فخصصته للحديث عن المعارك النقدية التي خاضها "الرافعي" ضد "العقاد" و"طه حسين"، وفي الخاتمة قدمت مجموعة من الخلاصات، منها: تأثر "الرافعي" بالتراث العربي وتكريس نقده للدفاع عليه. وهناك مدرستين في النقد العربي؛ الأولى محافظة، والثانية مجددة، ويقوم المنهج النقدي عند "الرافعي" على التشبث بالتراث، واتباع السلف في النقد.

الكلمات المفتاحية: النقد، التجديد، التراث، المعارك، الانفتاح

abstract:

This research is titled: The Criticism method of Rafiai and the Battle of Authenticity and Modernity, in which I spoke about Rafi's criticism method and the most important writers he criticized in his criticism battles, namely Abbas Mahmoud Al-Akkad and Taha Hussein, and together they belong to Renewable Current. The aim of my study on this topic is to research the criticism of Rafiai, as well as to address the most important criticism issues on which the critic disagreed with advocates of renewal and openness to the principles of the West, as well as to describe the criticism differences between all these critics representing the traditionel school and the renovated school, especially since these literary battles have received great attention from modern researchers. For that reason, this study was divided into three main interlocutors: the first dealt with the concept of criticism at Rafiai and his method of criticism , and the second axis talked about the main criticism issues touched upon by the critic , and the third devoted it to

talking about his criticism battles against Akkad and Taha Hussein, In conclusion, I presented set of conclusions and conclusions, including : Rafiai was influenced by Arab heritage and dedicated his criticism to defend him against any attempt at renewal. The emergence of two Arab criticism schools; The first seeks to preserve Arab-Islamic components, and the second seeks renewal and creativity. And the criticism method at Al Rafiai is based on clinging to heritage

Keywords: Criticism, Renewal, Heritage, Battles, Openness

المقدمة:

لقد صاحب النقد الإبداع الأدبي منذ لحظة ظهوره، فارتبط به ارتباطا شديدا، فكان يتطور بتطوره ويتراجع بتراجعه، ولعل التفاتة متمعنة في النقد العباسي في مرحلتيه الأولى والأخيرة يجد الفارق الواضح بينهما؛ إذ لما كان الأدب مزدهرا كان النقد مزدهرا أيضا، ولما أصاب الأدب الركود انعكس ذلك على النقد بشكل كبير.

ومن المعلوم أن النقد الأدبي خلال مراحل تطوره لم يعد مجرد عملية ذوقية تكشف عن مواطن القبح والجمال في الأعمال الأدبية، وإنما اتجه نحو المنهجية العلمية والموضوعية، فأصبح علما مستقلا بنفسه، ومؤسسا وفق مصطلحات ومفاهيم تميزه عن سائر العلوم الأخرى؛ حيث يدرس الأعمال الأدبية ويفسرها ويقف عند مواطن القوة والضعف فيها ويوازنها بأعمال أخرى، ويبين قيمتها في الساحة الأدبية. وهذا المفهوم الحديث للنقد جعل العديد من الباحثين يقررون أن ما كان سائدا قبل القرن 19م لا يمكن إدراجه تحت دائرة النقد، لأنه مبني على الذوق فقط ولا يقوم على أسس علمية وموضوعية.

لقد شكل النقد بمفهومه الحديث قطيعة مع الأعمال الانطباعية والقراءات التذوقية للأدب ومتونه، وأخذ النقد يتأسس على أسس مرجعية وفلسفية وعلى وعي حداثي بضرورة إحداث قفزة في مجال النقد مواكبة لازدهار الأدب ونضوجه، ولعل من أهم مظاهر التطور في مجال النقد ظهور ما يسمى بالمعارك الأدبية الحديثة التي عكست بشكل واضح قضايا النقد الحديث وتطوره، وقد ترأس هذه المعركة النقدية طرفان: الأول: دعا إلى العودة إلى القديم والتشبث بأصول التراث العربي، والثاني: أكد على ضرورة النهوض بالنقد الأدبي والقطع مع القديم والاستفادة من النظريات الغربية الحديثة.

وقد شملت معركة الأصالة والحداثة كل مناحي الحياة الإنسانية بجوانبها المختلفة، ومن بين هذه الجوانب النقد الأدبي، حيث انبرى في خضم ذلك مجموعة من النقاد في كلا الفريقين الذين دافعوا عن مبادئهم وآرائهم النقدية، ومن هؤلاء "مصطفى صادق الرافعي" الذي يعد من أبرز النقاد المحدثين الذين كان لهم بصمة كبيرة في النقد الأدبي الحديث، وهو يمثل الاتجاه المحافظ الذي ناصر القديم ودافع عن التراث العربي.

وفي إطار ذلك جاء هذا البحث الموسوم بـ"النقد عند الرافعي ومعركة الأصالة والحداثة" لتسليط الضوء على المنهج النقدي عند "مصطفى صادق الرافعي"، وأهم الأدباء والنقاد العرب الذين خاض ضدهم هذه المعارك النقدية، وسنقف تحديدا عند "عباس محمود العقاد" و"طه حسين"، باعتبارهما يمثلان التيار المجدد الذي نهض ضده "الرافعي".

مشكلة الدراسة:

سنسعى من خلال هذا البحث إلى الإجابة عن مجموعة من الإشكاليات منها:

- ماهي أهم المبادئ التي ارتكزت عليها المدرسة المحافظة والمدرسة المجددة في النقد الأدبي؟
- ما أوجه الاختلاف بينهما؟
- ما هي أبرز الأسماء التي مثلت المدرستين في الساحة النقدية؟
- ما طبيعة المنهج الذي اتبعه الرافعي في نقده للأدباء؟
- ما هي أبرز النقاط التي وقف عندها الرافعي في نقده للعقاد وطه حسين؟

منهج الدراسة:

بالنظر إلى طبيعة الموضوع فإننا نعتمد على المنهجين: الوصفي والتحليلي، حيث سنصف المنهج الذي توسل به الرافعي في النقد، مع الوقوف عند بعض أقواله النقدية وتحليلها.

أهدافها الدراسة:

جاءت هذه الدراسة لتحقيق مجموعة من الأهداف، منها:

- التعرف على المدارس النقدية العربية ومبادئها التي ارتكزت عليها.
- بيان انتماء الرافعي ورؤيته النقدية.
- الاطلاع على أهم الآراء النقدية التي جاء بها الرافعي وخصومه.

أهمية الدراسة:

ترجع أهمية هذا البحث إلى كونه يعرض لفريقين مختلفتين ومتعارضتين في الآراء والأفكار النقدية ضمن النقد العربي الحديث، بين مدافع عن التراث وبين داعي للتجديد، كما أنه يسلط الضوء على حقبة زمنية مهمة في النقد العربي.

هيكل الدراسة:

- المبحث الأول: الاتجاه المحافظ والمجدد في النقد الحديث
- المبحث الثاني: المنهج النقدي عند مصطفى صادق الرافعي
- المبحث الثالث: المعارك النقدية التي خاضها الرافعي

المبحث الأول: الاتجاه المحافظ والمجدد في النقد الحديث

شهد الأدب العربي الحديث خلال القرن 19م نهضة فكرية سعت إلى تحقيق مجموعة من الأهداف في مقدمتها بعث التراث العربي القديم وإحياؤه من جديد، فبعد مرحلة الركود التي مرت في تاريخ الأدب العربي، وانتشار الأعمال البذيئة والمكررة، واستعمال اللغة الضعيفة والركيكة، وجد الأدباء أنفسهم أمام منزلق قد يقودهم إلى انهيار الأدب العربي، وهو الذي عرف في عصوره الذهبية بالجزالة والقوة والإبداع، لذلك كان لابد من حركة البعث للتراث العربي والتي كانت بمثابة الفاصل في نقل الأدب العربي من مرحلة الركود والتقهقر إلى مرحلة التجديد والتطور. وقد ساهم في هذه النهضة الأدبية مجموعة من العوامل كظهور المطابع وانتشار طباعة الكتب، والرغبة في التجديد والانفصال عن القديم.

والأكيد أن الحديث عن الأدب هو في الآن نفسه حديث عن النقد أيضا، ذلك أن النقد الأدبي منذ بداية ظهوره ارتبط بالأدب فكان يتأثر بتأثره، فلما كانت الحياة الأدبية على مشارف الموت كانت الحياة النقدية كذلك، ولما أخذ التطور ينطلق رويدا رويدا إبان الحملة النابولية شمل النقد أيضا، ولذلك أجمع النقاد على أن هذه الحملة كانت بمثابة الشرارة التي أرخت للنهضة العربية في جميع مجالاتها، يقول عبد المنعم تليمة: "إن احتكاك مصر والشام بالعالم الأوروبي الجديد المتمثل في حملة نابليون (1798-1801) كانت الشرارة التي أيقظت ذلك الوعي وفجرت طاقة الرغبة في الإصلاح، وتجلت هذه الرغبة في الكلمة التي قالها الشيخ حسن العطار أستاذ رفاعة الطهطاوي الذي

اتصل برجال الحملة الفرنسية عن كثب:" إن بلادنا لابد أن تتغير وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها"[1].

لقد شكلت الحركة النقدية البنية التحتية للأدب العربي فرافقته في كل أطواره، ولما انقسم الأدباء العرب– بفعل احتكاكهم بالغرب– إلى تيارين: التيار المحافظ والتيار المجدد، انعكس ذلك على النقد أيضا، فظهر فيه جماعة النقاد المحافظين وجماعة النقاد المجددين، وسنعمل فيما سيأتي على التعريف بكل جماعة على حدة.

1) المدرسة المحافظة

بعد أن عاش الأدب والنقد العربي فترة طويلة من التراجع كانت حملة نابليون بمثابة السراج المضيء، فانفتحت الأمة العربية على الثقافة والفكر الأوروبي، وبقدر ما كان لهذه الحملة سليبات جمة على المجتمع العربي، إلا أنه مع ذلك لا يمكن نكران فضلها في إعادة الأدباء والنقاد العرب إلى الوجهة الصحيحة. وفي خضم هذا الاحتكاك الثقافي بالغرب برز على الساحة النقدية العربية جماعة من النقاد نادوا بالعودة إلى التراث العربي والاستقلال بمنهج نقدي عربي بعيد عن المناهج والتيارات الغربية وفي الآن نفسه يكون متصلا بالتراث النقدي القديم.

لقد رفع رواد هذه الحركة النقدية المحافظة شعارا واحدا هو التشبث بالتراث والتقاليد القديمة، ذلك أنهم رأوا أن الانفتاح على الغرب والنهل من ثقافته أصبح يشكل تهديدا كبيرا لمنجزات الحضارة الإسلامية وأن التيار الغربي بآدابه ومناهجه النقدية يسعى لطمس الثقافة العربية والسنن التي سار عليها العرب القدامى، من خلال ترجمة أعمالهم والترويج لآدابهم ومذاهبهم، ولذلك كان لابد من نشوء مدرسة تدافع عن الأدب الإسلامي وتحميه من محاولات محوه وتعيد الاعتبار للتراث العربي القديم. وقد قامت هذه الحركة النقدية على أسس ومبادئ ارتكزت عليها لإحياء التراث العربي[2]، ومن هذه الأسس نذكر:

- بعث اللغة العربية والمحافظة على الأسلوب القديم المتسم بالجزالة والقوة والنضارة.
- بعث التراث وإعادة القيم الفنية والنقدية القديمة إلى الوجود وإحياء الموروث النقدي وتأصيله، لأن الأمة التي تتمرد على تراثها سرعان ما تنحدر إلى النسيان.

[1] تليمة، عبد المنعم، (1987م): الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع، بحوث تمهيدية، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص261.

[2] انظر حسن المرصفي، (2012م): الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة العربية. والرافعي، (د ت)، وحي القلم، بيروت، المكتبة العصرية، وكتابه تحت راية القرآن.

ومن أبرز الأعلام التي مثلت هذا الاتجاه نجد: "مصطفى صادق الرافعي" (1880-1937).

لم يكن الشيخ حسن المرصفي (1810-1889) الناقد الوحيد الذي دافع عن التراث النقدي العربي، وإنما تبعه في ذلك "مصطفى صادق الرافعي" أحد أعلام المدرسة المحافظة والذي برع في جميع الفنون الأدبية والنقدية، كما عرف بجزالة ألفاظه ومتانة أسلوبه ونسجه على منوال القدماء، يقول عبد الحميد دياب مادحا أسلوبه في نظم الشعر: "وعلى هذا الفهم ترى شعر "مصطفى صادق الرافعي" بديباجته العربية من حيث متانة التركيب وقوة الأسرة ومطاوعة اللغة لمعانيه"[(1)].

لقد كان "الرافعي" أحد أبرز النقاد المحافظين، حيث رفض كل محاولة للتجديد بل واتهم أنصار المجددين بأنهم غير مطلعين على ما خلفه القدامى، ولم يتبن "الرافعي" هذا النهج اتباعا لسابقيه أو تأثرا بهم، وإنما كان مؤمنا ومقتنعا به، وهذا ظاهر بقوة من خلال الرد على خصومه المجددين، فقد "خص قسما كبيرا من مقالاته للدفاع عن الإسلام ومصر والشرق، ونزعته في كتاباته نزعة إسلامية شديدة فيها من التدين والاندفاع الشيء الكثير"[(2)]، ودافع عن الأدب القديم بشكل لافت للانتباه، وقد أفضى به تعصبه الشديد إلى خوض معارك أدبية فيما عرف بقضية الجديد والقديم.

ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن "الرافعي" لم يرفض التجديد بشكل قطعي، بل رفض التجديد الذي لا ينبني على القديم ولا يأخذ منه، وفي هذا يقول: "لست أقول أن نهضة الشرق لا أساس لها، فإن لها أساسا من حمية الشباب، وعلم المتعلمين، ولكن هذا كله على قوته وكفايته لا يكفي لأن يكون أساس وطيدا يقوم عليه بناء عدة قرون من الحضارة الشرقية العالية، بل ما أسرعه إلى الهدم والنقص، والذي أراه أن نهضة هذا الشرق العربي لا تعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان: الدين الإسلامي واللغة العربية"[(3)]، وهذا يعني أنه لم يرفض نهضة الشرق العربي، ولكن أكد على ضرورة اقترانها بالدين الإسلامي واللغة العربية، وبواسطتهما سيتم القضاء على التبعية الغربية والحفاظ على التراث النفيس.

ننتهي إلى القول إن التيار المحافظ سعى إلى الحفاظ على ركائز الأمة العربية وثوابتها، وتوعية مخالفيه بالخطر الذي يهدد هذه الأمة، وهدف الغرب المتمثل في طمس التراث العربي.

2) المدرسة المجددة

إذا كانت المدرسة المحافظة قد نادت بضرورة العودة إلى الماضي والتشبث بالتراث العربي القديم، لأنه مصدر قوة الأمة وأساس استمرارها، فقد خلف هذه المدرسة تيار نقدي مجدد تأثر بالنقد

[1] دياب، عبد الحي، (د ت): شاعرية النقد في ميزان النقد الحديث، القاهرة، النهضة العربية، ص13.
[2] الفاخوري، حنا، (1953م): تاريخ الأدب العربي، بيروت، المطبعة البوليسية، ص1138.
[3] الرافعي، مصطفى صادق، (د ت): وحي القلم، ج3، بيروت، المكتبة المصرية، ص164-165 (بتصرف).

الأجنبي، وتبناه جماعة من المثقفين من الجيل الجديد والذين دعوا إلى التخلص من القديم، لأنه السبب في تقهقر الأدب العربي وتراجعه، والانفتاح على كل المستجدات في الميدان الأدبي والنقدي.

لقد طرحت هذه المدرسة فكرة جديدة على الساحة الأدبية مناهضة لما جاء به الأدباء المحافظون، وتتمثل هذه الفكرة في الانفتاح على الثقافة الغربية والعلوم الجديدة، والاقتداء بالنموذج الأوروبي من أجل تحقيق التقدم والتطور، لأنه السبيل الوحيد للحاق بالركب الحضاري الذي يعيشه الغرب. وعموما يمكن القول إن هذه المدرسة قامت على مجموعة من المرتكزات نذكر منها[1]:

- التحرر من القواعد الجاهزة والأنماط التقليدية التي كرسها أتباع التيار المحافظ، والدعوة إلى تبني مناهج نقدية علمية جديدة، وفي هذا يقول العقاد 'حامل لواء النقد الحديث': "فلهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة"[2].
- على الناقد أن يتنازل عن اتباعيته للقدامى وينفتح على مستجدات العصر، ويندمج مع الغرب وثقافتهم وأفكارهم وآدابهم ومنظورهم للفنون، لأنه الأساس لاستمرار الأدب العربي.

ولقد ناصر هذا التيار الجديد جماعة من النقاد البارزين في مقدمتهم "عباس محمود العقاد" و"طه حسين"[3].

أ. "عباس محمود العقاد" (1889-1964):

يعد "العقاد" من أهم النقاد والأدباء في العصر الحديث الذين دعوا إلى تبني القيم الجديدة، والثورة على التقاليد القديمة، وقد جسد دعوته هذه من خلال كتابه المشترك مع المازني" الديوان" والذي يعد بداية النقد الأدبي الحديث، حيث أسس إلى جانب المازني وشكري مدرسة أدبية نقدية عرفت بمدرسة الديوان.

لقد رفض "العقاد" التقليد بشكل قاطع نتيجة تأثره بالأدب الغربي خاصة الإنجليزي، كما انجذب أيضا إلى الفكر الألماني متأثرا بفلسفة كانط ونتشه، وكذا بسيغموند فرويد، ولذلك يعد "العقاد" من أوائل النقاد الذين أدخلوا المنهج النفسي في النقد إلى الساحة النقدية العربية، ويصرح بتبنيه لهذا المنهج قائلا: " إذا لم يكن من بد من تفضيل إحدى مدارس النقد على سائر مدارسه الجامعة، فمدرسة النقد السيكولوجي أو النفساني أحقها جميعا بالتفضيل في رأيي وفي ذوقي، لأنها المدرسة التي نستغني

[1] انظر العقاد والمازني، (د ت)، الديوان، ط4، القاهرة، دار الشعب

[2] العقاد والمازني، (د ت): الديوان، ط4، القاهرة، دار الشعب، ص4.

[3] انظر الجندي، أنور، (2008م)، المساجلات والمعارك الأدبية، ط2، القاهرة، مكتبة الآداب.

بها عن غيرها ولا تفقد شيئا من جوهر الفن أو الفنان المنقود"[1]. ولم يكن متأثرا بهذا المنهج فقط، بل كان مطبقا له على مجموعة من الشخصيات من خلال كتابيه حول "ابن الرومي" و"أبي نواس"، ويقوم هذا المنهج على أن الإبداع هو انعكاس للحياة النفسية للأديب، ومنه يمكن فهم عمله بالرجوع إلى حياته وسيرته. ولم يقتصر العقاد في نقده على المنهج النفسي وإنما طبق أيضا المنهج التاريخي متأثرا بالناقد الفرنسي "سانت بيف"، في دراسته لمجموعته المعروفة بالعبقريات.

ب. "طـه حسين" (1889-1973):

من غير الممكن الحديث عن النقد الحديث دون التطرق لأحد أهم أعلامه وهو الدكتور "طه حسين" الذي يعد من الجيل الجديد، حيث عاصر العقاد والمازني، وتبنى المنظور الحديث للأدب والنقد العربي.

لقد كان طه حسين" من النقاد الذين دعوا إلى التحرر من مقومات الأدب التقليدي والانفتاح على الثقافة الأوروبية، واعتماد المناهج والنظريات الغربية في مختلف مسائل التفكير والأدب، وبالنسبة لهذا الناقد تستوي "كل مدارس النقد والأدب الأوروبية، وكل مراحل التاريخ الأدبي في الغرب، من حيث إنها نتاج مجتمعات متقدمة تنقل ثمار تقدمها –مهما تنوعت أو تباينت أو تنافرت أو تضاربت– إلى مجتمع متخلف لتدفع عملية النهضة في هذا المجتمع إلى الأمام."[2] وإلى جانب ذلك فقد سعى "طه حسين" إلى تجريب كل المناهج الغربية الممكنة على الأدب العربي القديم والحديث، بغية تأصيل الدراسة الأدبية ومد جسور الالتقاء بين الأدب العربي والآداب الأوروبية الحديثة. فحاول بذلك أن يلبس الأدب العربي ثوبا أوروبيا حديثا مبنيا على أساس علمي واضح.

تأثر "طه حسين" بالفكر والفلسفة الفرنسية خاصة الفلسفة الديكارتية المبنية على تحكيم العقل والتجرد من كل المسلمات التي كانت في الذهن، ويصرح بذلك قائلا: "أريد أن أقول إنني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة، فيما يتناولون من العلم والفلسفة، أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث"[3]، كما نجده يمدح هذا المنهج بقوله: "إنه من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرا"[4]، ويدعو إلى وجوب التأثر بهذا المنهج الوافد من الغرب.

---

[1] علي، عبد اللطيف علي عبد الظاهر (2018م): فراقية ابن زريق البغدادي على ضوء المنهج النفسي، مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس، ع24، ج3، ص18.

[2] عصفور، جابر (1983م): المرايا المتحاورة دراسة في نقد طه حسين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص10.

[3] حسين، طه، (د ت): في الشعر الجاهلي، تونس، دار المعارف، ص23.

[4] المصدر السابق، ص23.

المبحث الثاني: المنهج النقدي عند الرافعي

أشارت الباحثة فيما سبق إلى أن "الرافعي" كان من أكثر النقاد دفاعا عن المدرسة النقدية الاحيائية، وأشدهم خصومة لمن يحاول التمرد على مبادئ أو مقومات هذه المدرسة، ولذلك فإن حياته الأدبية كانت مليئة بالمعارك القلمية المحتدة.

لقد سخر "الرافعي" قلمه وكتاباته من أجل الدفاع عن التراث العربي والهوية الإسلامية، فانعكس ذلك بشكل ظاهر في أسلوب كتابته الذي كان ينحو فيه منحى القدماء، ويسير على خطى النماذج التراثية الشامخة والأصيلة، فقد كان "يكرر ويعيد كثيرا التشبيهات والمعاني والموضوعات عبر تلك الكتابات كلها، وليس من شك في أن ذلك علامة فقر ثقافي، فلقد اقتصر "الرافعي" على قراءة التراث"[1].

انطلاقا من هذا يمكن القول إن منهج "مصطفى صادق الرافعي" هو منهج تقليدي يقوم على بعث التراث العربي والحفاظ على أصوله ومقوماته التي عرف بها منذ العصور القديمة وميزته عن الآداب الأجنبية، ووقف ضد أي محاولة للتجديد، معتبرا أن ذلك يشكل تهديدا للغة العربية والدين الإسلامي، ولقد حرص على تمثيل الأدب القديم من خلال أسلوبه في الكتابة وطريقة نقده، واعتراضه على خصومه المجددين من النقاد، "فاقتصاره على الثقافة العربية قد حدد لونه النقدي، فهو إذا تعرض لنقد الشعر مثلا نظر إليه كما نظر الناقد العباسي، يتسقط الأخطاء النحوية واللغوية، ويستجيد المعنى أو لا يستجيد، ويتتبع الفكرة ليرى أنها مبتكرة أو مسروقة"[2].

إن تأثر "الرافعي" بالقديم وحرصه على اتباع القدامى في نهجهم يرجع بالأساس إلى مجموعة من الروافد التي خلفت أثرا واضحا في شخصيته وطبيعة تكوينه، ذلك أنه نشأ في وسط ملتزم دينيا، فكان محبا لعلوم الدين واللغة العربية، يقول كمال نشأت: "وقد تهيأت للرافعي نشأة علمية دينية بمولده فردا في أسرة تأخذ بالثقافة الدينية، وليس من شك في أن هذه النشأة قد طبعته بطابعها في السلوك الاجتماعي وفي مناحي التفكير وأسلوب التعبير"[3]، أضف إلى ذلك أن إصابة "الرافعي" بعلة الصمم منعه من إتمام دراسته، لذلك لزم داره يدرس لنفسه ويطلب العلم من أمهات الكتب وبطون الكتب، فحفظ شعر العرب القدامى ونثرهم، وأحاط بأساليبهم التعبيرية وطرائقه، "وخير ما يقرأ في هذا الباب كتابات "الجاحظ" و"ابن المقفع" وأحب الكتب إليه من بعد كتاب الأغاني "لأبي الفرج"[4]. وما زاد من ارتباط "الرافعي" بالتراث أنه في الفترة التي كان فيها الأدب العربي يعيش انحطاطا في الأسلوب

[1] نشأت، كمال (1968م): مصطفى صادق الرافعي، القاهرة، دار الكاتب العربي، ص103.

[2] المصدر السابق، ص126.

[3] المصدر السابق، ص7.

[4] العريان، محمد سعيد (1935م): الرافعي، مجلة الرسالة للأدب والتاريخ، ع 110، ص69.

والصياغة اختار أن يعود إلى التراث العربي في عصور ازدهاره ليستمد منه ما يعينه على صقل موهبته، مما جعل اهتمامه بالتراث ونصرته له أكثر تشددا، "لقد نشأ نشأة متزمتة، ولم يتح له أن يخرج من بيئته المتشددة ولا أن ينفتح على الثقافات العالمية"[1].

لقد كرس "الرافعي" حياته من أجل الدفاع عن ثلاثة عناصر شكلت شخصيته وعقليته: الدين الاسلامي، اللغة العربية، الأدب العربي، إلا أن هذا لا يعني أنه كان مقلدا للقدامى بشكل كلي، فقد كان يجتهد ويقدم رأيه واضافاته التي يراها ضرورية، يقول عنه "الزيات": "بلغ علم الرافعي بالعربية وآدابها حد الاجتهاد والرأي، فكان يقف في التعليل والاستنباط من ثقافتها ورواتها موقف الند، وقد يتعظم أحيانا فيقف منهم موقف الأستاذ"[2]. وبهذا يتبين أن "الرافعي" رغم أنه كان شديد الالتحام بالأدب العربي القديم منذ نشأته إلا أن هذا لا يلغي حسه الإبداعي والنقدي، كما أن الاطلاع على الآداب العربية والإلمام بها ليس كفيلا بأن يصنع شخصية مثقفة وفذة كشخصية "الرافعي"، ولكن لابد وأن يصقل كل ذلك بقوة الطبع والدأب على البحث والتعلم واستثمار كل ذلك بشكل صحيح، وعليه يقول "علي حب الله": "إن مصطفى صادق الرافعي آخى بين أساليب كل من الجاحظ وابن المقفع والقاضي الفاضل وغيرهم من أئمة النثر، كل ذلك في غير كتابه من وحي القلم المتضمن لرسائله الصحفية والتي تمثل تطورا نحو الجديد في نثر الرافعي، من دون أن يتخلى عن موقعه في الدفاع عن أساليب القدامى والحط من قدر الأساليب الحديثة المتأثرة بالآداب الأوروبية"[3]. ولعل هذا قد يقودنا للحديث بتفصيل أكثر عن أسلوب "الرافعي" في النقد، ذلك أن المتمعن في كتبه النقدية، خاصة كتابيه 'تحت راية القرآن' و'على السفود نظرات في ديوان العقاد' سيقف عند مجموعة من الأمور التي توضح طريقة الرافعي المتبعة في النقد، وسنحاول فيما يلي أن نتبين أسلوبه النقدي، انطلاقا من النقاط التالية:

أ. اعتماد أسلوب التهكم

من المعلوم أن الناقد قد يوظف في أسلوبه ألوانا مختلفة من النقد إلا أنها لا تخرج عن الأسلوب الموضوعي الذي يكون مبنيا على مصطلحات نقدية، إلا أننا نجد الرافعي في نقده قد تجاوز حدود النقد الموضوعي إلى درجة التهكم والسخرية والهجوم العنيف على المبدع والأديب، ولن نبالغ إن قلنا

[1] الفاخوري، حنا (1986م): الجامع في تاريخ الأدب العربي، ط1، بيروت، دار الجيل، ص310.
[2] الزيات، أحمد حسن (1938م): مصطفى صادق الرافعي مات الرجل العظيم، مجلة الرسالة، ع 254، ص2.
[3] حب الله، علي (2001م): المقدمة في نقد الشعر العربي مشروع رؤية جديدة في تقنيات البحث والكتابة، ط1، بيروت، دار الهادي، ص220.

إنه في أحيان كثيرة كان يلجأ إلى الألفاظ والعبارات النابية، "لقد كان ناقدا عنيفا حديد اللسان، لا يعرف المدارة ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه"[1].

إن للنقد الأدبي لغته الخاصة، إلا أن "مصطفى الرافعي" كان ينفلت منها فتشتد حماسته ليستعمل من الألفاظ والعبارات ما يناسب قناعته وتقرع بخصمه أيا تكن منزلته العلمية والأدبية، ولا ضير أن نمثل لذلك، حيث يقول منتقدا "العقاد": "إن العقاد لص من أخبث لصوص الأدب"[2]، ولا يكتفي بنعت العقاد باللص، فيضيف: "يزيد العقاد على لصوص الأدب والكتابة بما فيه من هذه الوقاحة العامية الثقيلة التي هي سلاحه في كل ميادين، وليس هذا بعجيب، فإن في الوجود مثل العقاد حشرات وحيوانات، وهو دويبة فوق جرو الكلب"[3]، فهنا نجد "الرافعي" ينتقد العقاد بشكل لاذع، إذ ينعته باللص، ويحكم عليه بالحيوان ويشبهه بالدويبة، وهذا نقد هجائي قدحي، حتى ليتخيل للقارئ أن المسألة تتجاوز حد النقد الأدبي إلى مسائل شخصية. غير أن هذا لا يعني أن الرافعي كان يعتمد دائما أسلوب الهجاء والتهكم، بل نجده كثيرا يوظف أسلوبا راقيا، متأدبا، ودقيقا، يعكس وعيه النقدي وأخلاقه الفاضلة، ومن ذلك قوله منتقدا المجددين: "فالمجددون الملحدون هم جزء من الخطأ يخرج من عمله جزء من الصواب، ومما نريد أن نزيد طه على ما قلناه فيه مما ستقرؤه في هذا الكتاب، ولكن نرجو أن يهديه الله فيكون من أمته ويعود إليها."[4] فهنا يظهر جانب آخر من جوانب شخصية الرافعي الناقدة، متبصر ومتشبع بالقيم والمبادئ الفاضلة، يدعو "لطه حسين" بالهداية والعودة إلى الطريق الصحيح.

ب. التركيز على الجزئيات ونقد الشكل

في كثير من الأحيان نجد أن الناقد يتصيد عمل المبدع، فيقف عند أبسط الأمور التي غالبا ما يتجاوزها نقاد آخرون، و"الرافعي" كان يمضي في منهجه النقدي متتبعا كل الأخطاء اللغوية أو العروضية التي يقع فيها المبدع، فكان يتناول حتى الجزئيات ويركز على نقد الشكل أكثر من اهتمامه بالمضمون وقيمة العمل الأدبي في كليته، ومن ذلك قوله: "وفي صفحة 37 يزعم المتشاعر أنه يعارض "ابن الرومي"، ولعمري لو بصق ابن الرومي لغرق "العقاد" في بصقته، يقول:

في كل روض قرى للزهر يعمرها *** يا حبذا هي أبيات وسكان

[1] العريان، محمد سعيد، (1955م): حياة الرافعي، ط3، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ص148.
[2] الرافعي، مصطفى صادق، (د توثيق): على السفود نظرات في ديوان العقاد، ص79.
[3] المصدر السابق، ص137.
الرافعي، مصطفى صادق، (1974م): تحت راية القرآن، ط7، دار الكتاب العربي، ص10 (بتصرف).4

ولا أدل على جهل "العقاد" بالنحو والعربية من هذا، فإن 'أبيات' و'سكان' هنا في هذا التركيب يجب أن تكون منصوبة على التمييز، وقد جعلها مرفوعة، لأنه جاهل جهلا صريحا"[1]، فهنا "مصطفى الرافعي" ينتقد العقاد لارتكابه خطأ نحويا دون النظر إلى معنى البيت ودلالته، وفي مثال آخر نجده ينتقد "العقاد" على خطأ صرفي، فيقول: "انظر الفرق بين الشاعر الحقيقي مثل البحتري، والمتشاعر الدعي الغبي مثل العقاد الذي يقول:

إني إلى الرعي من عينيك مفتقر *** يا ضوء قلبي فإن القلب مدجان

فسر 'مدجان' في القول بـ'غائم'، و'مدجان' مفعال صيغة مبالغة، فكيف تأتي صيغة المبالغة من الرباعي، أي فعل أدجن؟ مع وضعهم وزنا خاصا للمبالغة في هذه المادة وهو فعل 'ادجوجن'[(2)].

وهكذا يتضح أن" الرافعي" كان يتصيد كل هفوة وقع فيها "العقاد"، دون تسامح أو تجاوز، وإن المتتبع لنقده يجده قلما يثني على أعمال خصومه ويستحسنها، علما أن النقد لا يتعلق بذكر الأمور الرديئة في العمل، وإنما ببيان الأمور الحسنة أيضا التي تعرض إليها المبدع.

ت. اتباع منهج السلف في النقد

من المعروف أن النقاد العرب القدامى في العصور الذهبية كان لبعضهم طريقة مخصوصة في النقد وايصال آرائهم النقدية، من ذلك "ابن المقفع" في كتابه 'كليلة ودمنة'، وهو كتاب استخدم فيه المؤلف الحيوانات والطيور كشخصيات رئيسية، لكنها في الواقع ترمز إلى شخصيات بشرية، يستعرض من خلالها آراءه النقدية، وقد عمد "الرافعي" إلى أخذ هذه الطريقة من "ابن المقفع" وتطبيقها، لإيصال آرائه وأفكاره بطريقة غير مباشرة، وفي هذا الصدد يقول "محمد سعيد العريان": "وكليلة ودمنة كتاب في العربية نسيج وحدة، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ أن كان "ابن المقفع" إلا "مصطفى صادق الرافعي"، وكان أول هذه المحاكاة اتفاقا ومصادفة في مقال من مقالات "الرافعي" في "طه حسين"، إذ أراد أن يتهكم بصاحبه على أسلوب جديد فبعث كليلة ودمنة ليقول على لسانهما كلاما من كلامه ورأيا من رأيه"[(3)]، فشبه "طه حسين" بالسمكة الصغيرة 'دمنة' التي قررت أن تخرج من مكانها الضيق لتبحر في محيط واسع، مما جعلها تشعر بالغرور والطمع في امتلاك كل شيء، لكن حدث أن وقعت في شبكة الصياد، فقالت: "أيتها الشبكة، دعيني، فوالله ما قلت إن المحيط ميراث أجدادي ولا البحر ميراث أعمامي ولا النهر ميراث أبي، قال كليلة: فمثل من هذا يا دمنة؟

الرافعي، مصطفى صادق، على السفود نظرات في ديوان العقاد، الرافعي، ص1.72

[2] المصدر السابق، ص73-74.

[3] العريان، محمد سعيد، حياة الرافعي، ص165.

قال: مثل طه حسين في كتابه لمدير الجامعة"[1]. ومما يدل أيضا على أن الرافعي تبنى في نقده منهج القدامى أنه كان يعمم الأحكام والنتائج التي يتوصل إليها، وهذه طريقة كان يتبعها جماعة من الشعراء القدامى في تحكيمهم؛ إذ كانوا يحكمون بالجودة والرداءة على شعر الشاعر انطلاقا من البيت الواحد أو البيتين الشعريين فقط، وهذا ما نلمسه في كتاب على السفود "للرافعي"، حيث خص هذا الكتاب بالنقد والدراسة لديوان "عباس محمود العقاد"، وازدرى فيه كل أعماله شعرا ونثرا، كما وصفه باللص والجاهل لقواعد اللغة العربية، وكل ذلك توصل إليه من بيت واحد، فيقول فيه: "وهذا البيت سرقه العقاد من شوقي، ومع أن طبعي أنا لا يسيغ مثل هذه التشبيهات، ويراها كلها فسادا في الذوق، فإني أرى في بيت شوقي دقة غفل عنها العقاد، لأنه جاهل بالعربية، ليست لديه قريحة بيانية، فما في كتابه ولا شعره إلا الخبط لبط"[2].

فنلاحظ من هذا القول كيف أن "الرافعي" عمم حكمه على كتابة العقاد وأشعاره كاملة دون تعليل، واصفا إياها بالخبط، ويذهب في تعميمه لأحكامه النقدية أبعد من ذلك، إذ ينتقد بيت "العقاد" الذي يقول فيه:

ويسعى إليها الشاربون بمجلس *** يحف به عشب أثيث وأمواه

ويصفه بأنه "من أبرد ما جاء به شاعر عامي ساقط، هل يهتم بالعشب الأثيث والأمواه إلا حمار يحلم بالبرسيم ونحوه، أو من فيه روح حمار"[3]، ومن المعروف أن "العقاد" عاصر التيار الرومانسي وتأثر به في نظم شعره، والشعراء الرومانسيون كانوا يتغنون بالطبيعة وجمالها، لكن "الرافعي" وصف كل من يتحدث عن الطبيعة وسحرها بالحمار أو فيه روح حمار.

نخلص إلى القول مما سبق أن منهج "الرافعي" في النقد هو منهج يرتكز على ما يلي:

- العودة إلى التراث العربي والاقتداء به.
- الحفاظ على قوة وجزالة اللغة العربية، لأنها لغة القرآن والتشبث بها هو تشبث بالدين والهوية الإسلامية.
- رفض منهج المجددين واعتباره مهددا للتراث العربي.
- اتباع السلف في النقد وطريقة حكمهم على الأشعار.

[1] الرافعي، مصطفى صادق، تحت راية القرآن، ص175.
[2] الرافعي، مصطفى صادق، على السفود، ص126-127 (بتصرف).
[3] المصدر السابق، ص124

المبحث الثالث: المعارك النقدية للرافعي

عرفت الساحة النقدية في العالم العربي بروز مجموعة من المعارك النقدية التي جمعت بين ثلة من الأدباء والنقاد، والجدير بالذكر أن هذه المعارك بدأت تحديدا مع بداية انفتاح العربي على الثقافة الغربية، حيث حدث تصادم بين الحضارتين بسبب الاختلاف الكبير بين الثقافتين، فنتج عن ذلك ظهور جماعة من الشباب المثقفين الذين درسوا الآداب الغربية وتأثروا بمعالمها ومناهجها، ودعوا إلى تبنيها للنهوض بالأدب العربي، وتجاوز المقومات الأدبية المتوارثة، وفي ظل هذه الدعوة إلى التجديد نهضت جماعة أخرى من الأدباء الذين اعتبروا أن هذه الدعوة بابا للقضاء على اللغة العربية، ومن ثم على القرآن الكريم والدين الإسلامي، ونددوا بالعودة إلى التراث الأصيل والتصدي لكل ما من شأنه أن يهدد استمرار رموز الثقافة الإسلامية، وهكذا بدأت معارك أدبية بين الداعين إلى التجديد والمحافظين على التراث.

وقد كان "الرافعي" طرفا أساسيا ضمن هذه المعارك، بسبب شخصيته الثائرة على كل المقومات والمناهج الجديدة المستقطبة من الغرب، جاعلا من الحفاظ على اللغة العربية والتشبث بالتراث العربي شعاره في كل معركة يخوضها، ولعل من أشهر المعارك النقدية التي خاضها كانت ضد الأديبين الكبيرين "عباس محمود العقاد" و "طه حسين"، وسنعمل فيما يأتي على تبين معالم هاتين المعركتين النقديتين.

1) معركته النقدية ضد العقاد

لقد كانت حياة "الرافعي" سلسلة متواصلة من المعارك النقدية، إلا أن معركته ضد "العقاد" تعد من أعنف المعارك التي خاضها في حياته الأدبية، وذلك لأنها تخطت حدود النقد المقبول وتجاوزت مستوى الرقي الأدبي إلى مستوى التهكم والسخرية والشتم أيضا.

وكان "العقاد" أول من بدأ شرارة هذه المعركة، فبعد إصدار "الرافعي" لكتابه "تاريخ آداب العرب" سنة 1991م ، قدم العقاد رأيه حول الكتاب، معتبرا "أنه منشئ مكين ... ولكنه مضطرب القياس، يعمل القلم ولا يعمل الرأي، وأنه يجد بالتالي هذا التاريخ كتاب أدب لا تاريخ أدب"[1]، ولما أصدر "الرافعي" كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" عاد "العقاد" وانتقده مدعيا أن جل أفكاره مسروقة من كتاب "سعد زغلول"، الأمر الذي أغضب "الرافعي"، فخص كتابا كاملا للرد عليه، وعنونه بـ "على السفود نظرات في ديوان العقاد" والذي وجه فيه انتقادات لاذعة لأسلوب "العقاد"، يقول سعيد العريان: "ثم قال في غيظ وخنق: ومع ذلك فمالك أنت ولسعد؟ إن سعدا لم يكتب هذا الخطاب، ولكنك أنت كاتبه ومزوره، ثم نحلته إياه لتصدر به كتابك فيروج عند الشعب، قال "الرافعي": وما أطلقت الصبر

[1] شرارة، عبد اللطيف، (1984م): معارك أدبية قديمة ومعاصرة، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، ص286-287.

بعد هذه التهمة الشنيعة، ولا ملكت سلطاني على نفسي..."[1]، ومما زاد المعركة شرارة أن "العقاد" اتهم "الرافعي" بالسرقة من "شوقي" لفظا ومعنا، وذكر ذلك في مقالة: 'ما هذا يا أبا عمرو' ضمن كتابه الديوان، واستهلها بالسخرية من الرافعي قائلا: "مصطفى أفندي الرافعي رجل ضيق الفكر، مدرع الوجه، يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء"[2]، كل ذلك جعل العلاقة بين "الرافعي" و"العقاد" علاقة متوترة، وانعكس ذلك بوضوح على أحكامهما وآرائهما النقدية.

إن كتاب 'على السفود نظرات في ديوان العقاد' هو عبارة عن سبع مقالات كتبها "الرافعي"، ونشرها على فترات متباعدة في مجلة العصور من سنة 1929م، وجعل كل مقال تحت عنوان السفود، وهذه السفافيد هي: "عباس محمود العقاد"، عضلات من شراميط، جبار الذهن المضحك، مفتاح نفسه وقفل نفسه، العقاد اللص، الفيلسوف، ذبابة ولكن من طراز زبلن، وتناول في هذه المقالات مجموعة من القضايا النقدية نذكر من أهمها:

2) السرقات الأدبية:

تعرض "الرافعي" في مقالاته إلى قضية السرقات الأدبية، حيث وصف "العقاد" باللص والمنتحل، وأكد أن أكثر شعره مبني على سرقة المعاني وانتحالها من الشعراء، وهنا يقول: "فإذا ذهبت تقرأ كتبه رأيت أحسن ما يكتبه هو أحسن ما يسرقه"[3]، ليظهر بمظهر الأديب الناجح والمتفوق، ولذلك عنون 'السفود الثاني' بـ"عضلات من شراميط (هلاهيل)".

ويقيم "الرافعي" الحجة على صحة اتهامه "للعقاد" بالسرقة واللصوصية، فيقف عند مجموعة من القصائد التي تؤكد انتحاله من غيره، ومن ذلك يذكر أن ديوانه المقسم إلى أربعة أجزاء (يقظة الصباح، وهج الظهيرة، أشباح الأصيل، أشجان الليل) لم يكن هذا التقسيم من تأليفه وإنما سرقه من الفرنسي "مكيوردو فوجيه" الذي ألف رواية شعرية وجعلها في أربعة أجزاء (الفجر، الظهيرة، الأصيل، الليل).

3) انتقاد أسلوب العقاد وسوء اختياره للألفاظ المناسبة:

لقد انتقد "الرافعي" أسلوب "العقاد" فوصفه بالسخيف والعامي الذي لا يرقى إلى مستوى الشعر، واتهمه أيضا بسوء النظم والتوفيق بين الألفاظ في اختياراته، ونمثل هنا لبيت يقول فيه "العقاد":

مرحاضه أفخر أثوابنا *** ونحن لا نقصر من عذره

[1] العريان، محمد سعيد، حياة الرافعي، ص187.

[2] العقاد والمازني، (د ت): الديوان، ط4، القاهرة، دار الشعب، ص170.

[3] الرافعي، مصطفى صادق، على السفود، ص66.

فلفظة مرحاضه لفظة عامية لا يجوز استعمالها في الشعر، فوصفه لذلك "بصاحب مرحاضه"، وفي مثال آخر ينتقد قوله في أحد الأبيات:

يا من إلى البعد يدعوني ويهجرني

قائلا: "حين تقول: دعاه إلى أن يبتعد، ولا معنى لكلمة دعاه هنا، لأنها لا تفيد إلا الإقبال، وكان الأفصح أن يقول: فيهجرني، ليكون الهجر مترتبا على رغبة صاحبه في إبعاده"[1].

4) المقارنة بين شعر العقاد والشعراء:

كثيرا ما نجد "الرافعي" في سفافيده يوازن أشعر "العقاد" بغيرها ليبين ضعفه وانتحاله من الآخرين وسطوه على أعمالهم، من ذلك مقارنته بين بيت العقاد وبيت آخر لابن فارض في وصف الخمر، مبينا أن بيت "العقاد" "توليد سخيف من البيت الأول لابن فارض"[2]، كما قارن أيضا بين أبياته وأبيات العباس بن الأحنف في الغزل ليثبت أن معاني أبيات "العقاد" مسروقة من أبيات "العباس" التي هي أدق وأجمل.

5) انتقاد العقاد الناقد:

إلى جانب انتقاد "الرافعي" لأشعار" العقاد" فقد انتقد أعماله في النقد أيضا، حيث عاب دراسته "لابن الرومي" وتفسيره كثرة هجائه بطيبة سريرته، مؤكدا أن تفسيره هذا دليل على جهله بتاريخ الهجاء في الشعر العربي، كما انتقد أيضا مقاله المعنون بـ'سيماهم... دراسة نفسية' الذي وصف فيه خصومه السياسيين، واعتبر أن كل تلك الصفات هي "صفات العقاد بالذات، وهي أخص ما عرف العارفون من خصائصه"[3].

6) انتقاد الأغلاط اللغوية والعروضية في شعر العقاد:

من العناصر التي وقف عليها "الرافعي" في انتقاده لقصائد "العقاد" كثرة الأخطاء اللغوية والعروضية، حيث يصفه بالجاهل لقواعد اللغة العربية ولعلم العروض، ليبين ضعف تكوينه ويضرب في قيمته العلمية، ومن ذلك قوله في بيت "العقاد":

ولو مزجوا بالخمر طينة آدم لعاش *** ولم يدر القطوب محياه

[1] الرافعي، مصطفى صادق، على السفود، ص68.
[2] المصدر السابق، ص149.
[3] المصدر السابق، ص142.

"لمن ترجع هذه الواو في هذا الرقيع 'مزجوا'، وهل خلقت آدم في رأي العقاد جمعية آلهة، فيعود عليهم ضمير الجمع، وهل تريد دليلا على ضعف العقاد أقوى من هذا البيت، وكان يستطيع أن يبني الفعل للمجهول، فيقول (ولو مُزِجَتْ)"[1].

7) معركته النقدية ضد طه حسين

على غرار ما يدعي البعض من أن سبب نشوء هذه المعركة يعود إلى غيرة "طه حسين" من "الرافعي"، بعد تأليفه لكتاب 'تاريخ آداب العرب' الذي ذاع صيته وعرفه الناس به، يذهب الدكتور "كمال نشأت" ليؤكد أن الدافع الأول لهذه المعركة أن الرجلين تلاقا في دار السياسة الأسبوعية، حيث ذهب "الرافعي" ليهدي إليها كتابه 'رسائل الأحزان' وتصادف أن "طه حسين" كان أحد المتدخلين لإبداء رأيه حول الكتاب، فوجه إلى "الرافعي" تهمة الغموض التي تبدو في جل أعماله، من هنا بدأ الصراع بين الكاتبين.

ووصلت المعركة بينهما إلى أوجها بعد صدور كتاب 'في الشعر الجاهلي' "لطه حسين" والذي اتبع فيه منهج الشك الديكارتي، وأنكر وجود الشعر الجاهلي، الأمر الذي أثار غضب "الرافعي" بشدة، بسبب نزعته الدينية، فطلب من المسؤولين في الحكومة ورجال الأزهر منع "طه حسين" من نشر آرائه بين صفوف طلبة الجامعة، وكتب مقالات متعددة يثور فيها على كتاب "طه حسين" ومنهجه، وجمعها في كتاب أسماه 'تحت راية القرآن'، وسنعرض هنا لثلاث قضايا مهمة تطرق إليها "الرافعي" في كتابه:

8) عصبية طه حسين على الدين واللغة:

لقد كان "الرافعي" من بين أبرز المدافعين عن المقدسات الدينية والتي من بينها الدين الإسلامي واللغة العربية، ولذلك حين تم إصدار كتاب 'في الشعر الجاهلي' وجد أنه يطعن في هذه المقدسات، فوقف يدافع عنها بلسانه وقلمه، إلى الحد الذي تحولت فيه معركته ضد "طه حسين" من معركة بين القديم والحديث إلى معركة للدفاع عن العقيدة الإسلامية ولغة القرآن، وهذا ما يوضحه قوله في كتابه 'تحت راية القرآن': "ولاتزال تحسبه كتابا في الشعر الجاهلي...وهو كتاب في التنكيل بالإسلام، وعلم الله ما كتبنا هذه المقالات إلا لتقنع الجامعة بجهل شيخنا وفساد رأيه ومرض نيته، ثم لترد عليه هذا الغل الذي في قلبه للمسلمين"[2]، فهو يؤكد أن المسألة لا تتعلق بمحاربة المجددين، وإنما ترتبط بالعقيدة الإسلامية التي أصبحت مهددة من قبل "طه حسين"، ولذلك فهو يحذر من خطورة انتشار أفكار هذا الكتب بين طلبة الجامعة.

---

[1] الرافعي، مصطفى صادق، على السفود، ص148.

[2] الرافعي، مصطفى صادق، تحت راية القرآن، ص206، (بتصرف)

وإلى جانب ذلك فقد انتقد "الرافعي" محاولة "طه حسين" هدم اللغة العربية التي تعتبر من المقدسات التي لا يمكن المساس بها، وأكد عدم رفضه للتجديد الذي يبتغي الإبداع في المعنى، بشرط "أن تبقى اللغة قائمة على أصولها، على أن يكون التفنن في ابتداع القاضي الفاضل الذي سموه الطريقة الفاضلية لا مذاهب يراد بها إثبات ومحو"[1].

9) الاعتراض على منهج الشك الذي اعتمده طه حسين:

أشرنا سابقا إلى أن "طه حسين" ألف كتابه في الشعر الجاهلي وفق منهج الشك الديكارتي الذي يقوم على التشكيك في كل المسلمات والبديهيات، لذلك عاب عليه "الرافعي" اعتماده هذا المنهج، لأنه منهج خاطئ بالأساس، يريد أن يسقطه على أمور مسلم بها، أضف إلى ذلك أنه اعتبر أن هذا المنهج فلسفي، لكن "طه حسين" لم يفرق بين البحث عن حقيقة فلسفية وبين البحث عن حقيقة أدبية تاريخية، لأجل ذلك اتهمه بعدم فهمه للمنهج الديكارتي[2].

وقد تطرق "الرافعي" أيضا لمسألة اللهجات التي وضعها "طه حسين" موضع الشك في كتابه، معتبرا أن عدم انعكاس اللهجات العربية المختلفة في شعر الشعراء دليل على أن هذا الشعر موضوع بعد الإسلام، ذلك أن هذه اللهجات المختلفة لابد من أن يكون لها أثر في أوزان الشعر وتقاطيعه وبحوره، فيرد الرافعي قائلا: "فما هي اللهجات يا أستاذ الجامعة؟ كان ينبغي أن تستقريها قبل أن تعترض بها، فإنك لو فعلت لرأيتها في الجملة لا تغير شيئا من أوزان الشعر، فهي في معظمها بين إبدال حرف بحرف أو حركة بحركة، أو مد بمد، وكل ذلك لا يؤثر في إقامة الوزن كثيرا أو قليلا"[3]، وهنا يظهر أن "الرافعي" لا يضرب فقط في الدليل الذي اعتمده "طه حسين" للشك في الشعر الجاهلي وإنما يضرب أيضا في القيمة الأدبية والمنزلة التي يحتلها "طه حسين".

10) اتهام طه حسين في عقيدته:

إن اعتماد منهج الشك في معالجة "طه حسين" لقضية الشعر الجاهلي، وانكاره لنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى مهاجمته للغة القرآن، جعلت "الرافعي" يتهمه بالإلحاد والكفر والزندقة، فيقول عنه: "أهو مسلم حقا، وشيخ الأزهر والعلماء مسلمون لاحقا، وهم لا يفهمون الإسلام على وجهه مثل طه، لأنهم لم يكذبوا القرآن، ولم ينكروا النبوة مثل طه"[4].

---

[1] المصدر السابق، ص15.

[2] انظر كتاب تحت راية القرآن، الرافعي ص146.

[3] الرافعي، مصطفى صادق، تحت راية القرآن، ص148.

[4] المصدر السابق، ص351.

والأكيد أن "الرافعي" لا يوجه الاتهام "لطه حسين" دون مبرر، إذ من الأسباب التي دفعته إلى اتهامه بالكفر أنه قال في كتابه: "للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي"[1]، فهذا في نظر "الرافعي" إثبات على صحة اتهامه، لأنه يكذب قوله تعالى: "وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا" (إبراهيم: 34)، ولا يكتفي "الرافعي" بذلك إنما ينتقد عدم تصديقه للرسول صلى الله عليه وسلم، وعدم احترامه له، إذ يتعجب من أن كل العلماء والكتاب المسلمين يصلون على الرسول عند ذكر اسمه، وحتى كتاب المسيحية منهم، بينما طه حسين ذكره مرات عديدة ولم يتأدب معه ولا مرة واحدة[2].

الخاتمة:

حاول هذا البحث دراسة أحد أعلام الأدب العربي في ظل الصراعات التي شهدها مطلع القرن العشرين، حيث سعت الباحثة إلى ترصد أبرز المعارك النقدية في النقد العربي الحديث، والتي جمعت بين نخبة من النقاد والأدباء العرب، يترأسهم "مصطفى صادق الرافعي" الذي خاض عرف بمعاركه النقدية ضد كل من "عباس محمود العقاد" و "طه حسين"، وقد كان لهذه المعارك أثر كبير في التعريف بالحركة النقدية العربية وبالنقاد العرب أيضا، رغم ما تحتويه من نقد لاذع إلى أنها تعكس في الآن نفسه المكانة العلمية للنقاد العرب وانفتاحهم على رؤى نقدية وثقافات متنوعة.

وفي ختام هذه الدراسة لابد من الإقرار بالمكانة العلمية والأدبية الكبيرة التي حظي بها "مصطفى صادق الرافعي" بين الأدباء والكتاب العرب، حيث برع في كل المجالات الأدبية والنقدية، ورغم تشبعه بالتراث القديم إلا أن هذا لم يمنعه من الإبداع، وتقديم الإضافات التي أغنت الساحة الأدبية.

فيما يلي أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

- هناك مدرستين نقديتين؛ الأولى تسعى للحفاظ على المقومات العربية الإسلامية، والثانية تسعى للتجديد وتطوير الابداع والنقد العربيين، عبر الانفتاح على الثقافة الغربية.
- يعد "مصطفى الرافعي" أهم رواد المدرسة المحافظة، بينما يعد "العقاد" و"طه حسين" أبرز ممثلي المدرسة المجددة.
- تأثر "الرافعي" بالتراث العربي وتكريس علمه للدفاع عليه ضد كل محاولة تهدد وجوده واستمراره.

[1] حسين، طه، في الشعر الجاهلي، ص38.

[2] انظر كتاب تحت راية القرآن للرافعي، ص213 وما بعدها.

- تركيز "الرافعي" في نقده على الهفوات التي يسقط فيها خصومه دون الاهتمام بالمعنى الذي يقدمه الأديب.
- يقوم المنهج النقدي عند "الرافعي" على التشبث بالتراث والحفاظ على الركائز الإسلامية، بالإضافة إلى اتباع السلف في النقد.
- خوض "الرافعي" مجموعة من المعارك النقدية منها: معركته ضد "العقاد"، حيث وصفه بمجموعة من الصفات القدحية كاللص وصاحب مرحاضه، وانتقد أسلوبه ولغته.
- اتهام "الرافعي" "لطه حسين" بالعصبية على الدين الإسلامي والكفر لاتباعه منهج الشك في دراسة الشعر الجاهلي ولإنكاره نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم.
- انتقاد "الرافعي" لمنهج الشك الذي اعتمده "طه حسين" في دراسته للشعر الجاهلي وتخطئته.
- انتقاد "الرافعي" لأسلوب "العقاد" ووصفه بالعامي والسفيه والمرحاضي.
- اتسم نقد "مصطفى صادق الرافعي" للأديب "عباس محمود العقاد" بالخشونة الكبيرة، واستعمال ألفاظ عنيفة.

قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد حسن الزيات 16-05-1938م، مصطفى صادق الرافعي مات الرجل العظيم، مجلة الرسالة، ع 254.
- أنور الجندي، 2008م، المساجلات والمعارك الأدبية، ط2، القاهرة، مكتبة الآداب.
- جابر عصفور، 1983م، المرايا المتحاورة دراسة في نقد طه حسين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حسن المرصفي، 2012م، الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة العربية.
- حنا الفاخوري 1986م، الجامع في تاريخ الأدب العربي، ط1، بيروت، دار الجيل.
- حنا الفاخوري، 1953م، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية.
- طه حسين، (د ت)، في الشعر الجاهلي، تونس، دار المعارف.
- عبد الحي دياب، (د ت)، شاعرية النقد في ميزان النقد الحديث، القاهرة، النهضة العربية.
- عبد اللطيف شرارة، 1984م، معارك أدبية قديمة ومعاصرة، ط1، بيروت، دار العلم للملايين.

- عبد المنعم تليمة، 1987م، الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع، بحوث تمهيدية، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- العقاد والمازني، (د ت)، الديوان، ط4، القاهرة، دار الشعب.
- علي حب الله، 2001م، المقدمة في نقد الشعر العربي مشروع رؤية جديدة في تقنيات البحث والكتابة، ط1، بيروت، دار الهادي.
- علي عبد الظاهر علي عبد اللطيف، 2018م، فراقية ابن زريق البغدادي على ضوء المنهج النفسي، مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس، ع24، ج3.
- كمال نشأت، 1968م، مصطفى صادق الرافعي، القاهرة، دار الكاتب العربي.
- محمد سعيد العريان، 12-08-1935م، الرافعي، مجلة الرسالة للأدب والتاريخ، ع 110.
- محمد سعيد العريان، 1955م، حياة الرافعي، ط3، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.
- محمد مندور،1997م، النقد والنقاد المعاصرون، القاهرة، نهضة مصر .
- مصطفى صادق الرافعي، (د ت)، وحي القلم ج3، بيروت، المكتبة المصرية.
- مصطفى صادق الرافعي، (د توثيق)، على السفود نظرات في ديوان العقاد.
- مصطفى صادق الرافعي، 1974م، تحت راية القرآن، ط7، بيروت، دار الكتاب العربي.